في إمكانيّة معرفة الغرب

ملاحظات منهجية

رضا داوري الأردَكانيّ[*]

يتناول البروفسور الإيراني البروفسور رضا داوري الأردَكاني في مقالته هذه نظرية «الاستغراب» كحقلٍ علميٍّ تفتقر إليه مجتمعاتنا الشرقيّة، وذلك على الرغم من شدّة الحاجة إليه. يذهب الكاتب إلى تبيين الشروط اللاّزمة لإطلاق مشروعٍ شرقي إسلامي يحمل اسم «الاستغراب». لكنه يدعو فضلاً عن ذلك إلى ضرورة التمييز بينه وبين المحاولات المجتزأة والسطحية للتعرف على الغرب، كما يبيّن بإيجاز الظروف التي أدّت إلى ظهور نظريات «الاستشراق»، محذّراً من خطر إسقاطها منهجياً على مشروع «الاستغراب» الذي ينبغي بلورته وفق مناهج مبتكرة..

«المحرر»

على الرغم من تداول مصطلح «الاستغراب»، فإنّ سبر معناه يثير الاستغراب؛ فقد ألِفنا تعبيرَي «الاستشراق» و«المستشرِق»، نتيجةَ انهمام مؤسّساتٍ متخصّصةٍ بهذَين الحقلَين في أوربا وأميركا منذ قرنَين من الزمان.

في المقابل، غابت الدراسات في مجاليَ «الاستغراب» و«المستغرِب». ولعلّ من النادر العثور على مصطلح «Oxidentalism» (الاستغراب) كمقابلٍ لمصطلح «Orientalism»

---

*ـ فيلسوف ومفكّر من إيران، أستاذ الفلسفة في جامعة طهران، أستاذ زائر في عدد من الجامعات في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية.

ـ نقله من الفارسية: علي فخر الإسلام، باحث ومترجم.

(الاستشراق) في أيّ معجمٍ لغويٍّ، وفي حال وجوده، فلا يشير إلى معنى «الاستغراب» المتوخّى.

لم يكتسب «المستشرِق» صفته تلك بمجرّد إحاطته ببعض المعلومات حول الشرق، بل نشأ كلٌّ من مصطلحَي «المستشرِق» و«الاستشراق» نتيجةَ تحوّل «الشرق» موضوعاً لحقلٍ معيّنٍ من الدراسات والأبحاث.

ألم يكن ممكناً قيام بعض الشرقيّين جغرافياً بالمبادرة للاطّلاع على الغرب، ليصبحوا «مستغرِبين»؟

ألم يدرس كثيرٌ من علماء الشرق وطلاّبه في الغرب، الأمر الذي سمح لهم بالاطّلاع على الغرب؟

يدرس أطفالنا في كتبهم الدراسيّة تاريخ كلٍّ من أوربا وأميركا وجغرافيّتهما، حتّى أنّ العلوم التي تُدرَّس في الثانويّات والجامعات، ليست في أغلبها سوى ترجمةٍ لأعمال الغربيّين، ناهيك عمّا دوّنه المستشرقون الغربيّون من تاريخ علومنا وفلسفتنا وفنوننا وآدابنا، لينحصر دورنا بترجمتها فحسب.

إذاً، لسنا غرباء عن الغرب، بل نعرفه بطريقةٍ أو أخرى.

مع ذلك كلّه، لماذا نفتقر «للمستغرِبين»، ونفتقد فرعاً معرفياً يُعرف باسم «الاستغراب» حتّى الآن؟

وبالتالي هل تختلف معرفتنا بالغرب، عن معرفة المستشرِقين بالشرق؟

إنّ هاتَين المعرفتَين متمايزتان تماماً؛ فمعرفة الغرب بالشرق هي معرفةٌ استقصائية، أمّا المعرفة التي نمتلكها عن الغرب ـ كما يُعبِّر غابرييل مارسيل ـ فهي معرفةٌ أوّليّةٌ ناقصةٌ، تمثّل مجموعة العلوم الرسميّة التي تلقّيناها من الغرب، لا تشكّل إلا مجرّد أخبارٍ وصلتنا عنهم.

في المقابل، لم يأخذ المستشرقون شيئاً منّا، بل قاموا بدراساتٍ في علومنا وثقافتنا وآدابنا ومعتقداتنا؛ جاعلين من تاريخنا موضوع بحثهم، متّخذين مبدأ إعطاء الأولويّة للمواضيع التي تخدم أغراضهم في الغلَبة.

لقد حالت هيمنة الغرب دونَ تمكّننا من اتّخاذ الغرب موضوعاً لدراساتنا، نتيجةَ

عجزنا عن تأطيره ضمنَ حدود قدرتنا، كما أنّ بدايات احتكاكنا بالغرب كشفت حاجتنا للعلوم والقوانين والتقاليد الغربيّة، ما حرمَنا من مقاربة الغرب بنظرةٍ موضوعيّةٍ لانعدام القدرة أو المجال لدينا للقيام بذلك.

في هذا السياق، يبدو أنّنا بحاجةٍ إلى تقديم قدرٍ من الإيضاح في هذا الخصوص، من خلال التأكيد على أنّ «الاستغراب» يختلف كلّيّاً عن الإحاطة بعلوم العالَم الحديث وآدابه وتقاليده؛ فلم يُصنَّف علماؤنا الأقدمون الذين أخذوا الطبّ والفلك والنجوم والفلسفة من اليونانيّين وقاموا ببسطها، في زمرة المتخصّصين في «اليونانيّات»، بل لم يُطلَق عليهم هذا العنوان أصلاً.

ناهيك عن أنّنا لا نسبغ على أدباء الشرق وفلاسفته وعلماء الدين فيه لقب المستشرقين، وما إطلاق صفة المتخصّصين في «الإسلاميّات» على علماء الإسلام إلا على سبيل التسامح، لأنّ علماء الدين لا يحظون بذلك اللّقب ما لم يؤمنوا بذلك الدين ويبلّغوا أحكامه، بينما ليس من الضروري أن يكون المتخصّص بـ«الإسلاميّات» معتقداً بذلك الدين ومتمسّكاً به.

إذاً، يشكّل «الاستشراق» علاقةً خاصّةً بين الباحث والمواضيع التي يدرسها، في نسبةٍ بين «فاعل» المعرفة وموضوعها، والتي يُعبَّر عنها في لغة الفلسفة الأوروبّيّة بالنسبة بين «Subject» (الفاعل) و«Object» (الموضوع)، دون وجود أيّ ميلٍ لدى فاعل المعرفة نحو مفعولها، مكتفياً بوضعه أمامه حتى يتعرّف عليه من خلال المناهج العلميّة المقرّرة، ليُدخله في نطاق العلم.

ولا تشذّ سائر العلوم الحديثة عن تلك النسبة؛ بمعنى أنّ منهجيّة البحث تقتضي من الباحث مقاربة متعلَّق (بفتح اللاّم) بحثه بنظرةٍ موضوعيّةٍ تعتمد الحياديّة؛ إذ يمكن لأديبٍ وشاعرٍ فارسيٍّ تناول شعرٍ فارسيٍّ بهذه المنهجيّة ويكتب عملاً في تاريخ الأدب، دون التغاضي عن النسبة «ما وراء الموضوعيّة» التي تربطه بالشعر الفارسيٍّ، والتي تبتعد عن النظرة الحياديّة؛ فيمكن للقارئ الفارسيّ للشعر الفارسيّ تناول أنواع الشعر وصوره بحثاً ودراسةً، دون أن يتأثّر تذوّقه للشعر بمنهجيّة البحث، لأنّ تذوّق الشعر والاستئناس به، ليسا إلا نتيجةَ ميله له؛ فالشاعر يهوى الشعر، دون

أن يُعاب عليه ذلك، أو يُعترَضَ عليه بحجّة لزوم اتّخاذ الحياديّة سبيلاً في رؤيته الشعريّة.

لطالما كان أدباؤنا وشعراؤنا متذوّقين للشعر ومستأنسين باللّغة، ومع ذلك لم يظهر ما يُسمّى بتاريخ الأدب الفارسيّ إلا في العصر الحديث؛ إذ تعود بواكير الكتابات في تاريخ الأدب الفارسي والفلسفة الإسلامية و... إلى أعمال المستشرِقين التي حذا حذوَها باحثونا وعلماؤنا فيما بعد، وقد تعاملت المدرسة الوضعيّة مع ذلك التقليد باعتباره أمراً مفروضاً وضروريّاً مع ازدراء كلّ نسبةٍ وطريق آخر سواه.

ويتجلّى هذا الأمر بأوضح صورةٍ في حقل الدين والعلوم الدينيّة؛ إذ يمكن لشخصٍ ما أن يكون مؤرّخاً للأديان أو يمتلك معلوماتٍ واسعةً في أحكام دينٍ ما أو عدّة أديان، دونَ أن يعني ذلك اعتقاده بأيٍّ منها.

وكم من قادةٍ روحيّين لم تمنع مكانتهم كعلماء في الدين ومبلّغين لأحكامه، من مقاربة الدين وفقَ نظرةٍ موضوعيّةٍ بحتة، لأنّ تلك الرؤية للدين لا تعدو أن تتعامل معه كمتعلَّقٍ (بفتح اللاّم) لعلوم المستشرِقين، بينما تختصر نسبة الناس للدين بتلك النسبة التي تربط المستشرِقين بالثقافات والأديان الشرقيّة فحسب، في حالة تقيّد حراك البشر ضمن ساحةٍ واحدةٍ فقط، للعلم الموضوعيّ وحدَه فيها الكلمة الفصل، في انعكاسٍ لفئةٍ مغلوبٍ على أمرها أمام الغرب، دون إضفاء صفة «الاستغراب» عليها، حتّى ولو كانت ملمّةً بالعلوم الحديثة.

إنّ كلّ ما ذكرنا آنفاً لمّا يرفع الغموض عن موضوع البحث بعدُ؛ إذ لم نتبيّن الفرق بين «الاستغراب» من جهة، والإحاطة بعلوم الغرب وثقافته من جهةٍ أخرى؛ الأمر الذي يدعونا لتسليط الضوء على أقسام العلم تخفيفاً لحالة الإبهام.

في الوهلة الأولى، يمكن تقسيم العلم قسمَين: أحدهما العلم الموضوعيّ الذي يحيط فيه العالِم بالمعلوم ويتصرّف به، والآخر العلم الذي لا يشرف فيه العالِم على المعلوم أو يتحكّم به، بالرغم من عدم انفصاله عنه.

كما ينقسم العلم الأوّل الموضوعيّ بدوره إلى قسمَين؛ أحدهما العلم بالأمور والأشياء التي تتّصل بالعالَم الموجود والمتجدّد، سواءً كانت تاريخيّةً أو ثقافيّةً

أو طبيعيّـةً، والآخـر العلـم بالأمـور ذات العلاقـة بعالَـمٍ متشـتّتٍ، لم يبلغنـا منـه سـوى مجموعـة أخبـارٍ وآثـار، والـذي يُعَـدّ «الاسـتشراق» مـن سـنخه؛ فلـو كان مـن المقـرَّر التعامـل مـع «الاسـتغراب» كـ «الاسـتشراق»، عندئـذٍ يلزمنـا انتظـار نهايـة العـصر الغـربيّ أو افـتراض حالـةٍ يكـون العـصر الغـربيّ قـد بلـغ فيهـا نهاياتـه.

علينـا الأخـذ بعـين الاعتبـار فكـرة إعـراض المسـتشرِق عـن الاهتـمام بـأيّ شيءٍ لا يـزال ينبـض بالحيـاة في الـشرق، فقـد قـام المسـتشرِقون بدراسـاتٍ مهمّـةٍ في مجـالات العرفـان والفلسـفة والـكلام والأدب والسياسـة و...، لكـن لم نعـثر عـلى باحـثٍ مسـتشرِقٍ أنجـز دراسـاتٍ في علـم أصـول الفقـه، ويعـود السـبب في ذلـك، برأيـي، إلى صعوبـة نسـبة علـم أصـول الفقـه إلى المـاضي، للجـوء الفقهـاء إليـه في اسـتنباط الأحـكام، دون أن يعنـي كلامنـا اعتبـار كلٍّ مـن الفلسـفة والعرفـان والـكلام والأدب ميّتـةً عفـا عليهـا الزمـن، وأنّـه لم يبـقَ مـن العلـوم الحيّـة سـوى أصـول الفقـه، لأنّ كافّـة العلـوم والمعـارف حيّـة، ولكـنّ المسـتشرِق ينسـبها للـماضي.

لا يخفـى أنّ هنـاك فلسـفةً وكلامـاً وعرفانـاً وأدبـاً في الغـرب أيضـاً، لـكلٍ منهـا تاريخـه الخـاصّ، فـإذا بـادر شـخصٌ غـير غـربيٍّ بالبحـث في تاريـخ آداب الغـرب وفلسـفته وكلامـه، فلـماذا لا نعتـبره «مسـتغرِباً»؟

بعبـارةٍ أخـرى، إذا كان للمسـتشرِقين أن يُجـروا أبحاثهـم ودراسـاتهم في تاريـخ الشـعوب الشرقيّـة وفلسـفتها وآدابهـا وعلومهـا، حتّـى يُعـدّوا نتيجـةَ ذلـك في عِـداد المسـتشرِقين، فلـماذا لا يمكـن لنـا ـ نحـن الذيـن أخذنـا بعلـوم الغـرب، ونعتـبر أنفسـنا وغيرنـا في حاجـةٍ إليهـا ـ أن نُعَـدَّ «مسـتغرِبين» مـن خـلال القيـام بدراسـاتٍ في علـوم الغـرب وآدابـه؟.

إنّنـا، بتناولنـا تاريـخ فلسـفة الغـرب وكلامـه وآدابـه، سـنقوم بتجميـل تاريخنـا مـن خـلال المعلومـات التـي نحصـل عليهـا في هـذه العمليـة، بينـما يتّخـذ المسـتشرِق مـن مـاضي الـشرق مـادّةً لتاريخـه، مُضفيـاً عـلى تاريـخ الـشرق وماضيـه صبغـةً غربيّـةً.

كان «بيرجسـون» يقـول، في سـياق حديثـه عـن المعرفـة العلميّـة والعقليّـة، بـأنّ العقـل يُسـكِّن الأشـياء المتحرّكـة والمتغيّرة ذاتيّـاً؛ إذ كان يـرى بـأنّ العقـل الـذي تبلـور في مرحلـة تاريـخ الغـرب الحديـث لا يميّـز حقيقـة الموجـود الـذي يُمثّـل عـين الحيـاة والنشـاط

والسيرورة والصيرورة، بل يبحث عن صورة الأشياء الميّتة والجامدة.

إذا كان هذا الكلام منوطاً بقبول بعض مبادئ فلسفة «بيرجسون» وقواعدها، عندئذٍ يمكن تظهير صورة الموضوع بطريقةٍ أخرى؛ إذ عندما ننظر إلى التاريخ وفق المنهجيّة الفيزيائيّة، فإنّ تاريخ البشر وماضيهم سيتبدّل إلى شيءٍ فيزيائيٍّ خاضعٍ لقوانين الفيزياء.

لقد كتب المستشرِقون تاريخ الشرق من موقع التسلّط والهيمنة والغلَبة؛ الأمر الذي يجعل من معرفتهم بالشرق مختلفةً كلّيّاً عن معرفتنا بالغرب، بل لا مجال للمقارنة بينهما، لأنّهم تمكّنوا من اتّخاذ الشرق موضوعاً لأبحاثهم ومعرفتهم، بينما لم تتعدَّ معرفتنا بالغرب شكلاً من أشكال المساهمة في تلك المعرفة؛ فالإحاطة بالعلم والتكنولوجيا الغربيّة يشكّل نوعاً من المشاركة في التاريخ الغربيّ، ولا ينبغي الخلط بين هذا النوع من المعرفة و«الاستغراب».

لقد أخذت الأمم الشرقيّة، منذ قرونٍ عديدة، بعلوم الغرب وآدابه وفلسفته وتكنولوجيّته، دون أن يُعتَبَروا «مستغرِبين»، بل لم يتعامل أحدٌ مع منهجيّتهم وسلوكهم في هذا السبيل كنوعٍ من «الاستغراب».

بناءً على ذلك، هل يمكن اعتبار «الاستغراب» مفهوماً مستحيلاً يحول دونَ تأسيس فرعٍ بحثيٍّ تحت هذا العنوان؟

إنّ التمييز بين مصطلحَي «الاستغراب» و«الاستشراق»، يعيننا على استعراض شروط تحقّقه ـ أي «الاستغراب» ـ كما يلي:

1ـ ينبغي على من يتصدّون لدراسة «الاستغراب» تحاشي الشعور بالتبعيّة للغرب والدونيّة تجاهَهم، من خلال الحفاظ على استقلاليتهم وحريّتهم، أو تنمية حسّ التمايز بينهم والعالم الغربيّ كحدٍّ أدنى، رافضين التعامل مع الغرب كنموذجٍ للكمال المتوخّى، أو باعتباره المعلّم والموجّه، مكتفين بالنظر إليه كآخَرَ مختلف.

لقد نشأ الاستشراق في ظروفٍ كان الغرب يعتبر نفسه قمّة العالم والمهيمن عليه.

إنّ مقاربة معرفة الغرب وأدبه كغاية المعرفة والأدب الإنسانيَّين، أوالتعامل معهما

كانحرافٍ عن مبادئ الأخلاق وأصول الدين، تحول دونَ إمكانيّة تبلور «الاستغراب»، لتحوّل الغرب في هذه الحالة إلى شيء بعيدٍ عن صورة الآخَر.

فلو ابتعدت الدراسات التي ظهرت في الآونة الأخيرة واتّسمت بالعبثيّة ـ حول وجود الغرب عن النزعات الأيديولوجيّة، لساهمت في تسليط الضوء على شروط إمكانيّة تحقّق مشروع «الاستغراب».

لقد صادفنا خلال بحثنا جهات تنكر أيّ ماهيّةٍ للغرب أو ذاتيّةٍ له، مدّعيةً أنّ ما بلغه الغرب من قدرةٍ ومكانةٍ ليس خاصّاً به، بل يمكن، وينبغي، للعالم كافّةً أن يصل إلى تلك المرحلة.

إن تبنّي هذا القول صحيح نسبيّاً من إحدى الجهات؛ بمعنى أن يتصوّر مدّعوه احتكار الغرب الجغرافيّ للعلم والتكنولوجيا، عندئذٍ يحقّ لهم القول بأنّ كافّة سكّان العالم يمكنهم أن يأخذوا بذلك العلم الجديد، وسلوك سبيل التنمية العلميّة والتكنولوجيّة، إلا أنّ محلّ النزاع ليس في القول بأنّ كلاًّ من العلم والتقنيّة الحديثة خاصّةٌ بمجموعةٍ من البشر، بل يكمن في أنّ تاريخاً معيّناً يحمل مبادئ خاصّةً قد تبلور في الغرب، وبسط جناحه على كافّة أرجاء العالم، محوّلاً تاريخ العالم إلى تاريخٍ عالَميٍّ واحدٍ، وفي مثل هذا التاريخ الواحد كيف يمكننا تمييز الآخر وتحديد الخصوصيّات؟

لا شكّ في أنّ من ينكرون وجود الغرب وكينونيّته سيتعاملون بالضرورة مع «الاستغراب» بلا مبالاةٍ، وحتّى لو برّروا لأنفسهم التعامل مع هذا الموضوع، فإنّهم يحصرونه في نطاق معرفة الغرب، والاطّلاع على تاريخ الغربيّين وجغرافيّتهم وآدابهم وعلومهم.

أمّا أولئك الذين يقاربون الغرب تاريخاً عالميّاً، ذا ماهيّةٍ ومزايا معيّنةٍ، فإنّهم يُجارون تلك الفئة من الغربيّين الذين يتساءلون عن بدايات الغرب ومآلاته، ويسبرون حقيقة تاريخ الغرب في سبيل معرفته؛ فهم، بمعنىً ما، يتقبّلون فكرة إمكانيّة تحقّق «الاستغراب» لا بسنخه الاستشراقيّ؛ فلا يتّخذ المستغرِب من الغرب موضوعاً لبحثه، بل يستوعب تاريخه في ضوء ماهيّته، التي يبحث عنها ماهية في ضوء تاريخه.

يمثّل هذا النوع من فهم تاريخ الغرب وماهيّته نوعاً من المعرفة الظاهراتيّة، التي تستلزم الاحتكاك بعالم الغرب وفهمه من الناحية التجريبيّة.

2 ـ يستلزم إطلاق مشروع «الاستغراب» استيعاب التاريخ الغربيّ بشكلٍ عامٍّ، والذي ينحصر سبيل بلوغه في سبر فلسفته، ويتمظهر في تقنيّته، ما يستدعي الإحاطة بكلَيهما (الفلسفة والتقنية الحديثتَين)؛ إذ لم يعُد كافياً في هذه العمليّة مجرّد دراسة تلك الفلسفة في الجامعات وتأليف الكتب حول تاريخها وترجمتها وطبعها ونشرها وجمع المعلومات عن آخر الآراء والأفكار الفلسفيّة هناك، بل ينبغي التأمّل فيها من خلال وعي النسبة بينها وبين العالم الحديث، لا سيّما عبرَ التفكير في نهاية الفلسفة الغربيّة وأحوال ما بعد الحداثة.

لا يولد «الاستغراب» بكتابة مقالةٍ حول الثورة الفرنسيّة، أو ترجمة عملٍ أدبيٍّ أو فلسفيٍّ، لأنّ الشرط الأساس لتحقّقه يتمثّل في القدرة على التغلغل في فكر الغرب وفنّه وتاريخه وترسيخ الأقدام فيها.

إن كتابة مقالةٍ تناقش فلسفة فيلسوفٍ وشعر شاعرٍ من خلال جمع معلوماتٍ من هنا وهناك، تجسّد في أحسن الحالات اتباعاً لمنهجٍ ودراسةٍ جديدة، إلا أن يتمكّن الباحث من إعادة قراءة الموضوع وتحديد موقعه في سياقه التاريخي؛ بمعنى أن ينظر إليه من موقع المشرِف في إطلالةٍ بانوراميّةٍ.

قد نكتب مئات المقالات حول «سوفوكليس» و«أفلاطون» و«فيرجل» و«بوئيسيوس» و«سانت أوغستين» و«توماس مور» و«هيغل» و«غوته» و«نيتشه» و... إلا أنّ ذلك كلّه قد لا يكون كافياً لإضفاء صفة «الاستغراب» عليها؛ لأنّ أقصى ما يمكن أن تعكسه تلك المقالات إثبات شغفنا بكبار شعراء الغرب وأدبائه وفلاسفته وعلمائه، بينما «المستغرِب» الحقيقيّ هو ذلك الشخص القادر على إدخالهم في منظومتنا الفكريّة.

قد يقال: ألم يكن «نيكلسون» مهتمّاً ولهان بالمولويّ؟ ألم يصرف «ماسينيون» ردحاً من عمره في البحث حول أحوال «الحلّاج» وآثاره؟

إنّ إطلاق «ماسينيون» عنوان «محنة الحلّاج» على كتابه أكبر دليلٍ على تعلّقه بسيرة «الحلّاج».

لسنا في حاجةٍ لسرد الأمثلة حتّى نثبت ولع كبار المستشرِقين بالأعمال التي

أنجزوها؛ فقد كان بعضهم عاشقاً للشرق والشرقيّين، دونَ أن ينسوا ما يربطهم بالتاريخ الغربيّ، بل إنّ كثيراً منهم صرّحوا أو لوّحوا بإيمانهم بوحدة التاريخ، وما جرى في الماضي سواءً في الشرق أو أيّ مكانٍ آخر على الأرض لم يكن سوى مقدّمةٍ للتاريخ الغربيّ.

3 ـ مشروع «الاستغراب» رهنٌ بمعرفة منشأ ومعنى كلٍّ من العلم الحديث والثقافة الحديثة والحقوق الحديثة والسياسة الحديثة، وطالما أطلقنا أحكامنا على العلم والسياسة و... بناءً على المشهور السائد من الآراء فلا يمكننا أن نكون «مستغرِبين»؛ فلا نتوقّع من مؤيّدي الديمقراطيّة الاشتراكيّين، والفاشيّين، والنازيّين، و... أن ينتموا إلى تلك الفئة.

طبعاً، ليس على «المستغرِب» أن يكون معارضاً لتلك النزعات جميعاً، بل عليه أن يكون متحرّراً منها، ولا تخلو تلك النزعة للاستقلاليّة من صعوبة. مع ذلك، فإنّ تعسّر التحرّر من تقاليد الغرب الظاهريّة من سياسةٍ وحقوقٍ وغيرها، لا يُقارَن بمشقّة التحرّر من هيمنة تقنيّة الغرب وفلسفته.

4ـ مع ذلك كلّه، فقد توافرت في الغرب ظروفٌ يمكن في ضوئها تصوّر إيجاد مجالٍ لبروز «الاستغراب»؛ إذ لم يعد مشروع «الاستغراب» اليوم نوعاً من الترف الذي لا لزوم له، نتيجةَ ظهور أشخاصٍ يدّعون بأنّ الحداثة قد وصلت إلى مرحلة من الجمود والتوسّع الصوريّ والرسميّ، الأمر الذي قد يرسّخ في أذهاننا فكرة توقّف التجدّد وجموده.

في المقابل، يمتاز الفكر «ما بعد الحداثويّ» بالرفض للتعامل مع كل جديد، ما يمهّد الأرضيّة للعودة إلى الشرق واقتباس كلمات مفكّريه ومرشدي الفكر الروحيّ والمعنويّ لإضاءة طريق المستقبل.

5 ـ ليس «الاستغراب» ردّة فعلٍ على «الاستشراق»؛ فلا يمكن لـ«المستغرِب». ولا ينبغي له تطبيق المنهجيّة الاستشراقيّة في معرفة الغرب، لأنّ استخدامها في الغرب شاقّ للغاية، لن يُفضي إلى شيءٍ سوى تقديم تقريرٍ ناقصٍ عن موضوع الدراسة، كما حدث قبل مئتَي عام في إيران، حين ظهرت مجموعة من الأشخاص الذين

خاضوا تجربة كتابة تقارير حول سياسة بريطانيا وبعض الدول الأوربيّة.

إنّ سبر «الاستغراب» ودراسته في حاجةٍ إلى القدرة على كتابة مقالةٍ بحثيّة أو تأليف كتابٍ تحقيقيٍّ حول السياسة والأدب والفنّ والثقافة والاقتصاد والفلسفة في الغرب، ما يؤكّد أهمّيّة ترجمة كافّة الأعمال الفلسفيّة والأدبيّة والسياسيّة والتاريخيّة الغربيّة المهمّة من ناحية، ويفرض على اللّغة أن تتمتّع بالمقدرة والحيوية اللاّزمتَين تمهيداً لخلق هذا التحوّل التاريخيّ الكبير.

لا يعني «الاستغراب» الاكتفاء بمعرفة أمورٍ في التاريخ والجغرافية والأدب والفلسفة الغربيّة؛ إذ لو كان الأمر كذلك، لما احتجنا للتفكير في إيجاد فرعٍ علميٍّ باسم «الاستغراب».

إنّ أطفالنا في المرحلتَين الابتدائيّة والإعداديّة يقرؤون تاريخ وجغرافية أوروبّا وأمريكا، ويطالعون القصص الغربيّة ويطّلعون على سِيَرَ الشخصيّات الغربيّة البارزة. فضلاً عن مطالعة قرّائنا ترجمات الكتب الأجنبيّة، ناهيك عن أنّ كثيراً من الأفلام والبرامج التلفزيونيّة التي نشاهدها هي من نتاج الغرب، كما أنّ ما نتعلّمه في مدارسنا عن الغرب وما ينعكس في وسائل تواصلنا الاجتماعيّة عنه، لا تمكن مقارنته بما يعرضه الغربيّون أنفسهم عن الشرق في كتبهم وإذاعاتهم وتلفزيوناتهم.

مع ذلك كلّه، فإنّ للغربيّين «مستشرقيهم» و«استشراقهم»، بينما لا نطلق اسم «المستغرِب» على علمائنا المُلِمّين بأوضاع الغرب وأحوالهم؛ إذ على سبيل المثال، لم نطلق صفة «المستغرِب» على كلٍّ من «عبد اللطيف شوشتريّ» و«اعتصام الدين» و«أبي طالب الأصفهانيّ» و«آقا أحمد الكرمنشاهيّ»، مع أنّهم خاضوا غمار تجربة تقديم توصيف النظام السياسيّ في الغرب، وقاربوا سلوك الأوربيّين السياسيّ في مناطق أخرى من العالم.

من غير المقبول الادّعاء بأنّ المستشرِق يتناول دراسة الشرق باعتباره تاريخاً مضى، بينما لا يمكن اعتبار الغرب موضوعاً لـ«الاستغراب» لأنّه لم يلتحق بالماضي بعد؛ حيث يوجد اليوم مستشرِقون يدرسون الأوضاع الجارية في كلٍّ من إيران والصين والهند ودولٍ إسلاميّةٍ وشرقيّةٍ أخرى بصورة عامّة.

يمثّل المستشرِقون بشكل عامٍّ انعكاساً لمظاهر الثقافة الغربيّة، فإنّ هناك مجموعةً

منهـم تنتمـي للمرحلـة النهائيـة والأخـيرة مـن الاسـتشراق، ويمتـاز أعضاؤهـا بالاهتـمام بالأوضـاع المعـاصِرة ويميلـون غالبـاً إلى الاهتـمام بالسياسـة أكـثر، وينشـغلون بالتفكـير في خلـق تحـوّلٍ سـياسيٍّ في الـدول غـير الغربيّـة وتنتابهـم حـالات القلـق مـن ظهـور سياسـاتٍ مخالفـةٍ للغـرب فيهـا.

فـإذا كان مسـموحاً للاسـتشراق أن يتنـاول الأوضـاع الجاريـة وعـدم الاكتفـاء بدراسـة المـاضي، فلـماذا لا يمكـن تنـاول الاسـتغراب للأوضـاع الجاريـة في الغـرب؟

لا يخفـى أنّ للغـرب ماضيـاً يمكـن دراسـته، ولكـنّ معرفتـه العميقـة تحتـاج إلى شروطٍ منهـا، لـزوم سـبر ماهيّـة الغـرب، أو تقبّـل ادّعائـه، كحـدٍّ أدنى، بـضرورة التعامـل معـه ككيـانٍ ذي عنـوانٍ تاريخـيٍّ مميّـزٍ يختلـف عـن التواريـخ الأخـرى ويفـرض تأثـيره عـلى العـالم كلّـه.

في المقابـل، لا يحتـاج سـكّان العـالم الغـربيّ إلى «الاسـتغراب»، مـا يفـرض عـلى مـن يسـعى الى إطـلاق ذلـك المـشروع أن يكـون مـن خـارج ذلـك العـالم، علـماً أنّ الخـروج مـن هـذا النطـاق في عصرنـا الحـاضر أمـرٌ شـاقٌّ للغايـة؛ إذ كيـف يمكـن تصـوّر اتّخـاذ الغـرب موضوعـاً للبحـث، طالمـا لم يتحـرّر كلٌّ مـن الرؤيـة والفكـر والـرأي والعقـل والقلـب والـروح مـن قيـوده؟

لقـد علّـم الغـرب البـشر، طـوالَ 400 عـام، كيفيّـة النظـر إلى الموجـودات وانتخـاب الطريـق ومآلـه، متقمّصـاً خلالهـا دور دليـل عملٍ وعلـم، أو مدّعيـاً الهدايـة والقيـادة عـلى الأقـلّ، معتـبراً نفسـه تجسـيداً للعلـم والعقـل معـاً، فكيـف يمكـن التفكـير بإنزالـه مـن سـدّة العلـم والسـلطة بتلـك البسـاطة، وتحديـده في إطـار حدودنـا المعرفيـة؟

لقـد حـدّد الغـرب بنفسـه حـدود الإدراك والمعرفـة، ولا يمكـن لمـن يتواجـد في إطـار تلـك الحـدود تصـوّر مـا وراءهـا!

لا يمكـن لمـشروع «الاسـتغراب» أن يتحقّـق إلا بالتحـرّر مـن الغـرب عـبرَ التحـرّر التاريخـيّ مـن عالَمـه والخـروج منـه؛ فـلا يمكـن اعتبـار مجـرّد المعارضـة السياسـيّة أو النقـاش والجـدل في المواضيـع الثقافيّـة والفلسـفيّة دليـلاً عـلى التحـرّر مـن الغـرب، لأنّ كثـيراً مـن سـكّان الغـرب، بـل حتـى بعـض حـراكات ذلـك العالَـم حاليّـاً، تخالـف بعـض تلـك السياسـات، وتعكـس آراءً اجتماعيّـةً وفلسـفيّةً خاصّـةً بهـا.

إنّ التحرّر من الغرب لا يمكن أن يتحقّق إلا من خلال خلق حالة من الثورة في رؤية الناس ووجودهم، وهذا لا يتمّ إلا من خلال إدراك ماهيّة الغرب، واستيعاب أصوله ومبادئه، الأمر الذي لا يخلو من قدرٍ من الألم والمشقّة يعادل ما تحمله تلك الثورة معها من صعوبات، ولا يمكن بلوغها بمجرّد البحث والدراسة.

قد يبادر البعض لتبرير بعض الفلسفات الغربيّة ورفض أخرى وفقَ معايير يعتبرونها من المشهورات والمقبولات؛ علماً أنّ تلك المقاربات تسدّ الطريق أمام معرفة الغرب محوّلةً العلم إلى حجابٍ مانعٍ، يصيبنا بحالةٍ يكون فيه العلم أشدَّ علينا من الجهل.

في الظروف الحاليّة، إن الفلسفة «ما بعد الحداثوية» هي الفلسفة الوحيدة التي يمكن لها، بشكلٍ أو بآخر، أن تشكّل سبيلاً لمعرفة الغرب، والتي تتميّز بإخضاع كافّة مبادئ الغرب ومرتكزاته للتشكيك والتساؤل بعيداً عن الجدل لإثبات قضيّةٍ أو نفيها، ما يمهّد الطريق لخلق بدايات التحرّر من غلَبَة الغرب وهيمنته، كمنطلَقٍ لمعرفته بحقٍّ؛ إذ يتّصف الفكر «ما بعد الحداثويّ» بالطريقيّة لا الموضوعيّة، الأمر الذي يجعل من تأييده أو معارضته مؤشّراً على سوء الفهم، وإنّنا بحاجةٍ إلى معرفة الغرب لأنّ فتح طريق المستقبل يتوقّف على استيعاب وضع البشر بصبغته الغربيّة في العصر الحاضر.